«الكاتب الموظف: إكراهات الكتابة الجيدة»

أسماء الشامسية

الكاتب الجيد، كيف يصبح جيدًا؟

أجيبُ عن هذا التساؤل بملمح من فيلم «سوف تقابلين غريبًا طويلاً أسمر» إذ يمثّل جوش برولين دورَ الكاتب الذي يعمل في النهار سائق لموزين فاشل، وكاتبًا في الليل، وبسبب من انشغاله الذهني في تأليف الكتب فإنه يرتكب حوادث سير بين فترة وأخرى، وكان قبلها طبيبًا فشل في مهنته أيضًا، لأن جوارحه ووعيه يعملانَ بانتظام لدى «الكتابة» فقط، وبطلنا الكاتب يعتبر أنّ عالمَي العمل والكتابَة ضدان متنافران، فاختار أن يجلس في شقّته ويكتب، بينما تعمل زوجته لدفع الإيجار والإعاشة، ببساطة للتكسّب.

ليس المعنى من ذلك الانخراط التّام في الكتابة دون أن يقوم الكاتب بأي دور حياتي آخر، بل ما سوف أشير إليه لاحقًا يجعل من الصعوبة بمكان أن يعملَ الكاتب مثل آلة ثم يقسو على نفسه ويُقسى عليه في سبيل الإجادة.

فتخيّلوا معي، الكاتب الموظف يعمل لثماني ساعات موزّعة بين كتابة التقارير وإدخال البيانَات والأرقام بشكل آلي، وإشغال الذهن في حل مشكلات بسيطة أومعقدة داخل منظومة العمل، والتعامل مع زبائن مرعبين مثل تلك الوظائف في البنوك والبورصات وتخليص المعاملات في المكاتب الخدمية وما إلى ذلك، يقضي الكاتب الموظف نهاره في الانشغال حتى التّلف العقلي، ثم عندما تغيب الشمس يحشرذهنه المُشتت في انشغالات متلازمة القراءة والكتابة، لابدّ أن الكاتب الموظف قد تم استهلاكه حتى آخر حرف واعد في دماغه كان يمكن أن يكون مبتدئ روايةٍ أو سيرة ذاتية أو كتاب فكري أو علمي.

وليكن، فالكاتب الموظف لايفعل ذلك لأنه يريده، بل مفعولٌ به من أجل «حياة مؤمّنة» فالوظيفة بشكلها الرأسمالي الحالي هي عائق عن تأسيس نص جيد فكيف بكتاب جيد؟

لا يختلف اثنان في أن إنضاج التجربة الكتابية لدى كاتب مَا، تتطلّب تجارب ضاريَة في الحياة، ولا أبالغ إن قلت كوابيسَ أشبه بالذهانات النفسية وأنواع العصابات، وشيء من الببلومانيا، ومع ذلك يعيش الإنسان الحياة باعتبارها التجربة الأقسى على الإطلاق، سواءً كان كاتبًا أم غير ذلك، شاء أم أبى، قاد نفسه إلى التجارب أم اقتيد إليها، فهو خائض لامحالة في هذه المعمعة، والكاتب يحتاج إلى التخييل مستمرًا لا منقطعًا في عملياته الذهنية، يحتاج إلى لحظات زمنية يشتغل فيها على تجربة أدبية، تخليق أحداث، تخليق شخصيات، تحليل، بناء، هدم، ترميم الخ، وما تفعله الوظيفة بشكلها الحالي، تقضي على دفقه التخييلي الجامح.

فالكاتب الموظف اليوم، وهو يحمل هاتفه خلال ساعات انطحانه اليوميّ في العمل يمكنه من التقاط الفكرة وتدوينها سريعًا، فيما لايمكنه الاشتغال على الفكرة في الوقت ذاته، بل حالمَا ينتهي الأمد المحدد والزمني للآلة الرأسمالية التي تتيح له أن ينطلق بعد الثالثة أو الرابعة أو الخامسة مساءً، أو تستدعيه مع ذلك في أي وقت تشاء حتى لو كان الوقتُ فجرًا، في غمرة انفعالاته الكتابية أو غمرة نومه.

فلو افترضنَا أنه استحضرفكرة ما الآن، فيما كان يعتقد أنه متوفرٌ ليطلق العنان لأفكاره، يبدأ دماغه المشتبك بالخيال والنسج والأفكار في نسج خيوط الحكاية سرعان ما تتطفىء تجليات المشهد عند أول مهمة عمل مضنية وشاقة، يطالبه بها رب عمله.

يقول سعيد بنكَراد في تقديمه لكتاب «اعترافات روائي ناشيء» لأمبرتو إيكو إن الأخير تحدث عن «آليات الكتابة مجسدة في ما يسميه «الإكراهات» تلك القيود التي تجعل الفن موهبة، وجهدًا وخلقًا ضمن عالم ممكن، فالفنان في كل الميادين لايمكن أن يبدع دون أن يحيط نفسه بقيود هي الضمانة على انسجام ما ينتج».

وهو إذ يتحدث عن الإكراهات ضمن الفعل الكتابي، فيمكننا إسقاط المعنى نفسه لهذه الإكراهات ولكن تلك التي تسبق هذا الفعل، القيود الحميدة التي تفعل فِعلَ السجّان والمحرر في آن، تغذيه بالتجربة وتطلق أصابعه للكتابة بانسيابية تامة. فلو أن الكاتب الموظف يعمل في مناحي الحياة عملاً يهيئه للكتابة الجيدة، فهذا خياره الشخصي والمريح، أما الكاتب الذي يعمل ضمن إكراهات الحياة التي تحبس أنفاسه فضلا عن التزامات الحياة ومتطلباتها المتعددة، فلا يمكن أن يخلُصَ إلى عمل جيد ضمن هذه الحيازات التي تحاصره، دون خسارات كبيرة وتضحيات تجعله يفقد ذاته بدل أن يستعيدها.

فإذا لم تعمل المهنة على الذهاب بالفنان أو الكاتب أو المبدع أبعد من الأوراق الرسمية والأختام والمراسلات فليس ثمة أمر أسوأ على الكاتب بالأخص المبتدىء من تهديد فكرته واضمحلالها وسط «الإداري» أو الذي تخلقت فيه الرأسمالية تخلقًا حتى أصبح ضمن «اليومي» و «العادي» الذي يجبر الكاتب على التضحية بموهبته من أجله.

فمثلاً في أفضل مكان في العالم، أينما يكن هذا المكان، يعمل الكاتب كاتبًا، أو في مهنة تلائمه، بينمَا محليا يعمل الكاتب ضمن تضحياته الكثيرة ليكون قادرًا ليس على الكتابة وحسب، بل على حفظ اسمه ككاتب من الزوال، ومن تمييزصفته ككاتب من ضحالة اليوميّ وخوفًا من تهدد مقدرته على الكتابة.

محليا، ليس ثمة مؤسسات أمكنها أن تحشر الكاتب حشرًا في الثقافة بوصفها وظيفة، لكي يكون رسولاً للفكرة إلى المجتمع، طمعًا في خلق مجتمع متعدد متنوع،واع ومفكر، بل على العكس، لقد حُشر الكاتب في المجتمع الرأسمالي وفوضويته وقيوده، ليطالب بعدها أن ينسل بنفسه بمشقة ليكون كاتبًا متحققا.

وأنّى له ذلك؟ كان يمكن أن يكون عمل الكاتب لصيقًا بالثقافة، بالأعمال الفكرية، العمل في مؤسسات أشبه بالمنتديات التي تجمع الكلمة في كفّة وتتيح له تجربة الحياة بمرونة في كفّة أخرى، نعم أنا أحلم، فدعوني أحلم. لكن في وظيفة ثابتة يجد الكاتب نفسه محكومًا بعدد ساعات معيّنة لن يفيد جعلها ساعات عمل مرنة إلا إذا كان للكاتب حظوظًا بحسب المؤسسة المنتمي إليها، أقول إن الكاتب كان يمكن أن يُشركَ في مؤسسات تعنَى بكونه كاتبًا قبل كونه موظفًا إذا كانت هوية هذه المؤسسات هويات ثقافية طبعًا لا ربحية محضة، فماذا يمكن أن يبدعه الكاتب إذا كان لا يخرج إلى المجتمع ويتتبع تفاصيله وتقلباته ويلاحظ أحداثه، إذا كان حبيسًا في مكتبه المحوجز لأربعين ساعة في الأسبوع أو أكثر؟ عدَا أن يكونَ محظوظًا كفاية في مكتب ذي أربعة جدران يتيح له اقتناص الوقت ليكتب نصًا من نصف صفحة أو أقل.

تفوت الكاتب أشياء كثيرة خلال ساعات النهار المُقننة، تفوته أفكارهُ التي تنتظر إنضاجها عبر نص مَا، ليس هذا وحسب بل تفوته صحّته التي كان يمكن أن يقضي الثمان ساعات منها في تأمل أفكاره التي تذهب هباءً عبر العمل الإداري أو التنظيمي، تفوته حتّى تلك الغيمة الماطرة التي تعبر شامتة من خلال النافذة وما بيده حيلة ليلتقط من ورائها معنىً.

يُنتظرُ من الكاتب إنجازمن نوع ما؟ كأن يكتبَ ديوان شعر جيدا، رواية جيدة، كتاب فكري جيد ولا أقول عظيمًا. إذنًا عليه أن يكون مهيئًا للعبة التايكوندو هذه، فالكتابة فن قتالي، تصارع الأضداد، محنة،فإذا كان الإنسان العادي الذي لا يكتبُ،واهيًا روحه للشقاء، فالكاتب معلقًا على مشنقة الحياة،الألم مرّتان،مرّةعندما يعيش ويقاسي كبقية الآدميين، لكي لايُشرد في الشوارع، ليكون بصحة جيدة، لعيش في كنف أسرة وأحباء يحافظ عليهم، ومرة لكي يتنزع نفسه من الانسجام الخدّاع، من التظاهربالطبيعي، ويقول للعالم أنا موجود وهذا غير طبيعي، ثم يواجه مسؤولية ما يكتب عنه، يواجه قرّاءه بشجاعة، أشرسهم، المتأهبين للنيل منه، قساة الانتقاد، الفارغين من المعنى، فأن تكتب معناه أن تلتحم في عراك مع أشد الناس ضراوة، أولئك الذين لايكتبون، لكنهم أقسَى عليكَ من الكلمة التي تؤلمك، وكونك كاتبا مقهورا فبالكاد ستجد متسعًا من وقت أو فراغ لتواجه فكيف لتكتب بمعيار«الكتابة الجيدة»؟ عليكَ أن تؤجل التزامات كثيرة، أن تسابق الزمن، أن تهرول في كل خطوة تخطوها، عندما تأكل وتشرب وتتسوق وتصل أرحامك وتتواصل مع قرائك. بعدها ستطالب أن تكون كاتبًا سوبرمانيًّا، لاشيء مثلك ولا أحد كطاقتك، وأنت بلا حريّة، محكوم بالزمن وبالعمل وبالآخرين وبنفسك، محروم من السّعة ومن حياتك بالمعنى الدقيق لكلمة حرمان.

وأختمُ بمقولة بطل مسرحية الكونترباص لباتريك زوسكند، فإذا كان الكاتب يشعر بالمرض من الوظيفة الثابتة التي تؤمّنه، فكيف بالموسيقيّ الذي أمرضته «وظيفته الموسيقية» عبر آلة الكونترباص، التي وصفها بأبشع الصّفات، وتعلّم العزف عليها مرغمًا، بينما نحسب الأنغام تطيرُبه بجناحين: «أنا كعضو في أوركسترا الدولة. موظف، وكموظف لايمكن فصلي من العمل، أوقات دوامي محددة، وعندي خمسة أسابيع عطلة في السنة: تأمين صحي، زيادة راتب كل سنتين، راتب تقاعدي لاحقًا، حياتي مؤمنة على آخرها، وهذا ما يجعلني غير آمن، أنا لا أجرؤ أحيانًا الخروج من البيت، لهذه الدرجة حياتي مؤمنة، هذا شعور بالضيق، ضغط نفسي حاد، أنا أخاف كثيرًا من التأمين، مثل مرض الرهاب من الأماكن المغلقة، مثل مرض نفسي بسبب الوظيفة الثابتة، خاصّة مع الكونترباص، لأنه لايوجد عازف كونترباص حر، كعازف باص أنت مجبر طوال عمرك على الوظيفة. هكذا كانت الحياة دائمًا،عازف الأوركسترا كان دائمًا موظفًا».

وكالعازف كان الكاتب دائمًا موظفًا.